

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ (مريم: ٣٠ - ٣٢).

إلى أن يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ (مريم: ٣٤ - ٣٦).

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول ويتغير ختام الفاصلة فتصيح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل، وكأنا هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكما بعد نهاية القصة، مستمدا منها، ولهجة الحكم تقتضي أسلوبا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض، وتقتضي إيقاعاً قويا رصينا بدل إيقاع القصة الرضى المسترسل وكأنا لهذا السبب كان التغيير، فإذا انتهى القرآن من إصدار الحكم وإلقاء القرار عاد إلى النظام الأول في القافية والفاصلة، لأنه عاد إلى قصص جديد على النحو التالي:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (مريم: ٣٧) . . إلخ الآيات إلى أن يقول سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ (مريم: ٤١ ، ٤٢) . . إلخ الآيات.

ومن إبداع القرآن أن أسلوبه إذا مس الجماد نبض بالحياة وتبدل بقدرة قادرة، ومعجزة باهرة.

فالأرض والسماء والشمس والقمر والجبال والوديان والدور العامرة والآثار الدائرة والنبات والحيوان والأشجار والأفنان . . كل أولئك أحياء، أو مشاهد تخاطب الأحياء .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيًّا مَهِيلاً﴾ (المزمل: ١٤) فهي حية ترتجف كالآدميين.

ويقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَقُولُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مَنطَرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (المزمل: ١٧ ، ١٨) . فالسما المنفطرة بجوارها الأطفال الشيب .